تجليات شرف الفقيه في بلاد المغرب

أ:عباس رضوان[1]

مقدمة*:

تعتبر الرحلة في طلب العلم أمرا شائعا بين طلبة العلم والمعرفة في المجتمعات المغاربية حيث كانت فكرة ضرورة الأخذ عن الشيخ مباشرة والجلوس إليه لها أهمية كبرى في التعليم فلم يكتفي الطالب المسافر بقراءة مصنفات الشيخ وحده وإنما حرص على أن يقراها عليه أو يسمعها عنه حتى يتمكن من التفقه عنه وصحبته.

هذا ما يقودنا الى البحث عن معرفة قيمة ومكانة الفقيه الذي هو ملزم لشيخه في اكتسابه للعلوم والمعرفة والاخلاق الحميدة التي تجعل منه أهلا لشرف العلماء، ما يثير فضولنا العلمي هو البحث عن علاقة طالب العلم بالفقيه وسبب لزومه ومعاشرته والتسليم له، محاولا بذلك البحث عن اهمية الشرف في حياة الطالب وبحثه عن شيخ العلم والمعرفة، وعلاقة الشرف بكل ذلك وكيف يتصور الطالب تلك العلاقة مع الفقيه وماهي تصوراته وتمثله للفقيه المعلم، واين تتجلى مكانة الفقيه عند طالب العلم خصوصا المسافر الذي اثار على نفسه تحمل كل المشاق والمتاعب قصد حفظ كتاب الله.

ماهية الشرف:

الشرف :تعني كلمة الشريف "حسب "سيريل قلاس "Cyril Glass ، النبيل أو السيد والسادة هم ورثة الأنبياء أو الشيخ ذو مكانة مرموقة في المجتمع وتعني بالتركية الخان أو السيد أو الشيخ ، اما حسب الفرد بل "Alfred Bel "هو لفظ يستعمل لمناداة أشراف القوم ويطلق على النبي نفسه وصف سيدنا ومولانا خصوصا في التصلية عليه "في الصلاة" وهي مرتبطة كذلك بالمشايخ والعلماء والفقهاء".[2]

---

[1] - Citée par : Cyril Glassé Dictionnaire Encyclopédique de l'islam-édition française paris1991p44

* - **الكلمات المفتاحية:** النسب، الشرف ، الفقيه ، البركة ، المقدس ، الطالب "المريد"، العِلْم، المجتمع المغاربي سنحاول من خلال هذه الدراسة توضيح احدى مكانيزمات التراتب الاجتماعي ، الفاعل فيها أحد أقطاب المجتمع ألا وهو **الفقيه***، الذي حاز مكانة مرموقة في المجتمع بفضل انتهاجه واختياره وسلوكه طريق العلم ، الذي بفضله أخذ العلوم الشرعية وحفظ لكتاب الله وحمله في صدره ، جعل منه هذا الاخير يحوز مكانة الشريف ، والنسب الصالح والولاية التي تضفى عليه القداسة بسبب اخلاصه وبلوغه المقامات العليا في صحبة أولياء الله الصالحين وأل بيت حبيب الله.

[2]- محمد بن اسماعيل المقدم ، حرمة اهل العلم ، دار الايمان للطبع والنشر والتوزيع ،ط2، الاسكندرية 2000 ص13.

الاعراض: جمع عرض ،هو موضع المدح والذم من الانسان سواء كان في نفسه او في سلفه او من يلزمه امره وقيل هو جانبه الذي يصونه من نفسه وحسبه ويحامي عنه ان ينقص ويثلب، والحسب هو الكرم والشرف الثابت من جهة مأثرهم وشرف انسابهم وقيل هو الافعال الصالحة مثل الشجاعة والجود وحسن الخلق والوفاء[1]

أنواع الشرف وارتباطاته

أ_ **الشرف المرتبط بالثروة :** وهو ذلك الشرف المرتبط بإيديولوجية الدفاع عن الارث في المجتمعات بدون دولة، حسب "شنايدر" أما عن بيار بورديو يعتبره كأحد عوامل التراتبية الاجتماعية[2] ، هو كذلك مرتبط بالميراث العائلي أو التركة أو الارض، التي تخلق نوع من التراتبية في قضية النصاب، اي ان هناك نظام معين في هذا المجال الذي يحدد تلك التراتبية في الاسرة بصفة خاصة والمجتمع بصفة عامة، والعِرض مرتبط بالأرض، ذلك ما كان يفرق بين السيد والعبد وهناك مقولة مشهورة في الغرب الجزائري مفادها أنه " **ألي باع أرضه باع عرضه** " هذا ما يوضح أن هناك ارتباط وثيق بين ملكية الأرض والشرف، بمعنى أ ن النبيل أو السيد أو المولى هو صاحب الجاه والمال والمالك للأراضي والبساتين ويحوز العديد من العبيد والخدم الذين يحرثون الارض ويهتمون بشؤونها وهم أقل رتبة وجاه وسلطان من سيدهم وولي نعمتهم مهما كان نسبهم وبلوغهم لدرجة العلم.

ب_ **الشرف المرتبط بالجسد:** يسهر كلا الجنسين على احترام التقاليد، ويسهر الرجال على احترام الحشمة الجنسية للنساء من اجل أن لا تفسد طهارة نسبهم، وفقدان الشرف يولد العار[3] ، والشرف العذري هو شرط مهم في المجتمعات الاسلامية، حسب مالك شبل " لا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق على جوانبه الدم والذي تتحقق من خلاله هوية الزوجة المغاربية"[4] وهناك الكثير من الاسر تطلب من أهل العروس (البنت) تقديم شهادة العذرية لإثبات شرفها الجسدي (غشاء البكرة) الذي هو مرتبط بشرف الاسرة والعائلة ولقبها.

ج_ **الشرف المرتبط بالنسب:** المرفوع الى سلالة النبي الكريم صلى لله عليه وسلم ، وآل بيته و كل سلالته من بعده، كما في الرحلة الحبيبية على لسان احد المتصوفة يقول:

---

[1]- بيار بونت، ميشال ايزار، معجم الاثنولوجيا والانثروبولوجيا، ترجمة مصباح الصمد ،المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع،2006 ص583.

[2]- نفسه ص583.

[3]- مالك شبل "الجنس والحريم روح السراري، ترجمة عبد الله زارو ، افريقيا الشرق ،2010 المغرب ص 10.

[4]- احمد بن الحاج العياشي سكيرج ،الرحلة الحبيبية الوهرانية، تحقيق بن عمر حمدادو، العربي بوعمامة، دار قرطبة للنشر والتوزيع،2011،الجزائر، ص72

من نسل طه الرسول حقا لازال يرقى أوج المراقي[1]

ويقول ايضا، صاحب الرحلة الحبيبية الوهرانية:

ونسبه عزها ثم من إصر لها وعندها المرضى أكرم مهتد

سمت رتبة علياء أعظم بقدرها وكم تسم إلا بالنبي محمد [2]

شرف النسب يخرج عنه كل أنواع الشرف المذكورة بسبب عدم أنسابهم الى ال البيت المحمدي، من جهة القرابة الدموية أي كل من له اتصل ب ال البيت المحمدي هو شريف حتي وان لم تتوفر فيه كل متطلبات الشرف التي يتمتع بها الاخرين الذين ليسوا من اهل البيت والذين لا تربطهم بهم قرابة دموية أي له قرابة روحية.

د_ **الشرف المرتبط بالعلم:** يقول ابي زيد القيرواني في هذا الصدد جعل متعلق الشرف العلم لأن به يحصل الشرف في الدنيا على الاقران اذ هو أشرف ما يتزين به وجعل متعلق السعادة الاعتقاد ،والمراد به الاخلاص ، والمراد بالسعادة في الدنيا بامتثال الاوامر واجتناب المنهيات وفي الاخرة بالتمتع في الجنة [3]، شرف مكتسب من حفظ كتاب الله والتفقه في الدين (دراسة العلوم الشرعية) ، و الاخلاص للأولياء الله الصالحين وحبه لآل بيت رسول الله .

هـ _ **الشرف المرتبط بالبركة:** وهي بركة إلهية تتجلى في عجائبه وآياته[4] ، وعذوبة الاذواق ببركة الانحياش الى جانب سيد الخلق الاحمدي ، يقول صاحب الرحلة الحبيبية الوهرانية

ولكن اهل الفضل من ينتمي لهم يجلون من بين الافاضل مقداره

يجـــــــلونه حتى يظن بأنـــــــــه يمدهم من بينهم من انواره[5]،

تجلى البركة واكتساب الشرف، يظهر من خلال تلك التجليات والظواهر ونعم الله التي حبى بها عباده وأولياءه الصالحين، من فتح الله عليه بالمواهب العلية والاسرار الربانية

---

[1]- نفسه، ص251

[2]- ابن ابي زيد القيرواني ، كفاية الطالب الرباني ،تأليف علي بن خلف المنوفي المالكي المصري، احمد حمدي امام ، مطبعة المدني ، القاهرة 1987،ص69_70

[3]- بيار بونت، ميشال ايزار، المرجع السابق، ص583

[4]- احمد بن الحاج العياشي سكيرج ،المرجع السابق، ص72

[5] - Pisarkowa Krystyna : Le terme honneur, analyse pragmatico -linguistique. **Persée**: Langages, 23e année, n°89, 1988. pp. 65-70.

د_ **الشرف المرتبط بالأخلاق:** هو عبارة عن قيمة أخلاقية تتمثل في الشهامة، الرجولة، الصدق، الشجاعة، الكلمة، هي أساس اثبات هذه الاخلاق، بمعنى الرجل الشريف هو الذي يوفي بوعده (العهد) وكل رجل يخرج عن هذه الصفات فهو غير شريف مثل القاتل، الخائن ....أي انسان بلا كرامة، و الشريف هو الرجل استثنائي ورمز للجهاد والشجاعة والصدق[1]، تظهر نعمة الشرف على الانسان المتخلق بالخلق الحسن من خلال سلوكاته وأفعاله وأقواله، اذا عاهد أوفى، واذا تكلم نطق عن حكمة.

أصل شرف الفقيه في بلاد المغرب:

يرد الكاتب دييكودي طوريس في كتابه تاريخ الشرفاء أنه كان في نوميديا فقيه عادي يعيش في تكمادارت احدى قرى اقليم درعة، يسمى محمد بن عبد الرحمن الزيداني، الذي نسب نفسه الى سلالة النبي صلى الله عليه وسلم، كان فقيها ومقرئا وبسبب ادراكه سر علم الحدثان، عرف أنه سيكون لا بناءه شأن عظيم في امارة المغرب، وانطلاقا من هذه الفكرة قرر في سنة **1502** ان يرسل ابناءه الى الحج وزيارة قبر النبي صلى الله عليه وسلم ، لان المغاربة الذين يذهبون الى الحج ويعودون منه يعتبرون صلحاء، ولما رجعا اكرمهما البربر وعظموهما، وحيثما حلا كان الرجال والنساء يهرولون اليهما للثم اطراف ثيابهم[2]، بهذا الفعل طغت ميزة الشرف على الحياة الاجتماعية والسياسية ، لما لها من أهمية في حياة العامة ، حيث استثمار هؤلاء نسبهم الشريف حتي ولو ادعوا ذلك، كان الصلاح مبررا لكي يصبحوا شيوخ بركة يزورونهم للتبرك، حسب صاحب الرحلة الحبيبية "فالشيخ يصبح شيخا ليس فقط لأنه شريف يتوفر على البركة ولكن كذلك ورث السر ممن سبقه بعد أن اختارته العناية الالهية للخلافة "[3]، يقول التجاني:

يظنون بي خيرا وما بي خير ولكنني ارجوه من عالم السر

وما كان هذا الظن حتى أراده وتحقيقه إن شاء من أيسر السير[4]

هذا ما ساعد على انتقال الشرف والوجاهة من جيل الى اخر تماما كانتقال الموروثات المادية والمعنوية ، وما ظهور حركة الصلحاء في المغرب الا امتدادا واحياء للتراث الموحدي، الناتج

[1]- دييكودي طوريس ، تاريخ الشرفاء ، ترجمة محمد حجي و محمد الاخضر ، شركة النشر والتوزيع ،الدار البيضاء ،المغرب 1988 ص14/13

[2]- احمد بن الحاج العياشي سكيرج ،المرجع السابق، ص227

[3]- نفسه، ص91

[4]- نورالدين الزاهي ، بركة السلطان ،دفاتر وجهة نظر، مطبعة النجاح الجديدة ، المغرب ،2007 ص14_15

عن رفع ابن تومرت لنسبه الى النبي صلى الله عليه وسلم من جهة وتجميعه لكل الاحاديث المتعلقة بالمهدي، وإعلانه على أنه المهدي المعصوم قصد استمالة الناس اليه واحتضانهم للحركته، هذا ما تجسد مرة ثانية في تاريخنا مع مؤسس حركة الصلحاء الجزولي حين إعلانه على أنه شريف ومهدي في نفس الوقت، جاء ذلك كله بسبب رفضهم للشرفاء المرتبطين بالسلطان السياسي المرابطي والمريني، مع تقديمهم الشكل الجديد لنوعية الشرف المرتبط بالناس والمؤسس على ثقتهم الكاملة في صاحبه، هذا النموذج الذي سيكون له اهمية كبرى في الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية للفرد المغربي، وما يميز هذا النموذج هي تلك القواعد التي ارسها هؤلاء على المستوى الحقل الديني، الذي على اساسه تم ترسيخ الاسس الشرعية السياسية القائمة على الشرف التي ترتكز على القواعد التالية حسب نورالدين الزاهي :

_ العلاقة مع النبي علاقة مباشرة والصالح لا يعترف بأي وساطة بينه وبين النبي.

_ القبيلة والجاه والمال والاولاد لم يعودوا مرتكزا للحظوة بل أصبح الشرف هو المرتكز.

_ وحده الخطاب الاتي من النبي مباشرة يمتلك شرعية السيادة الدينية والسياسية.

_ المهدوية بكل ما يرتبط بها من كرامات وخوارق عنصر أساسي يمكن الصالح من اثبات تفوقه وسلطته[1].

كل هذا كان لحاجة ايجاد الاصل الخالص وليس فقط احترام المنحدرين من سلالة النبي الكريم ، أي بروز النزعة الشريفة وضرورة الارتباط القرابي بشخصيته.

الشرف والمقدس

ارتبط الشرف في المغرب بالصلحاء من اولياء الله و الفقهاء والعلماء والطلبة، بسبب حبهم لكتاب الله وحمله وتفقههم في الشريعة الاسلامية السمحة، ونظرا لحبهم للعلم وتسليمهم لبعضهم البعض طرح الله عز وجل بركته عليهم وكان من بين هؤلاء رجالات الله الصالحين واولياءه ولم يخرج عن هؤلاء النساء الصالحات اللواتي كان لهن دورا كبيرا في انجاب الفقهاء والعلماء وكذلك الشرفات من اهل البيت والمتصوفة والزهاد من امثال ربعة العدوية وغيرها من النساء، نجد ان رحال بوبريك الباحث المغربي يقدم لنا بحثا مهما حول بركة النساء، حيث يقول في هذا الصدد "لقد رفعت كرامات النساء الصالحات والمجذوبات والعابدات والوالهات

[1]- رحال بوبريك، بركة النساء ،الدين بصيغة المؤنث ،افريقيا الشرق ،2010 المغرب ص15

والمجنونات بما حملته من تجربة روحية لدرجة أكابر الاولياء بل منهن من سمت المقام الفردانية وهو مقام القرب الذي يعتبره ابن عربي الدرجة العليا من الولاية [1]، ومكانة المرآة في الاسلام تمثلت في شخصية البنت التي بلغت سمو المكانة القدسية التي حملته عن طريق ارث ابيها البيولوجي والوحي الديني والرمزي لأنها الوحيدة التي خلفت ذريته بما يعنيه ذلك من استمرارية للإرث البيولوجي النبي صلى الله عليه وسلم، لذا سيظل المجتمع يرى في ذريته اشخاصا ليس فقط يحملون نسبا عاديا بيولوجيا انما عبر هذا الاخير يتسمر البعد الروحي ليس في شكل نبوة بل في شكل جسد مقدس وروح يتم تبجيله وتكريمه من منطلق الانتساب الى شخصية مقدسة [2]، بمعني من يحمل البركة المتأسسة على العلم والصلاح والكرامات والاصل الشريف من الطبيعي ان يكون متميزا عمن لا يحوز اية رأسمال [3]" في هذا الصدد يقول نورالدين الزاهي يشترط في الفقيه توفره على ميراث يؤهله ليكون من تعبيرا بشريا للثقلين كتاب الله وسنة نبيه ميراث يتشكل من متغيرة الانتماء لآل البيت والقرابة معهم لكن هذه القرابة ليست نسليه او بيولوجية بل قرابة روحية، إن الميراث الروحي يحقق الانتساب الكامل للرسول ذلك الميراث الذي يتميز به الصوفية اولياء الله المرشدون [4]، هذا ما يحلنا الى فكرة أنه ليس كل من ينتسب الى الاصل الشريف، فقط هو شريف وانما حتى وضيع النسب هو شريف، شرفه من شرف العلم ، بمعنى أننا نقيس قيمة الشرف بميزان العلم، أي شرف المرء يقاس بقيمة العلم الذي يحمله في صدره (القران، العلم)، من خلال هذا المبدأ يعتبر حملة القران الكريم شرفاء بشرف القران الكريم .

تصورات وتمثلات المريد لشرف الفقيه

كان ولا يزال ديدان الطلبة البحث عن صحبة شيخا عارف ، يقول القلصادي "ثم تحرك خاطري إلي الانتقال وتشوقت النفس إلي الارتحال وتذكرت كلام القاضي عبد الوهاب بلسان الحال :

سافر تجد عوضا عمن تفارقه واتعب فان لذيذ العيش في التعب[5]

---

[1]- نفسه ص93

[2]- عبد الرحيم العطري، تحولات المغرب القروي ،اسئلة التنمية المؤجلة، تقديم مصطفى محسن، دفاتر الحرف والسؤال، سلا ،2009 ، المغرب ص108

[3]- نورالدين الزاهي ، المقدس والمجتمع ،افريقيا الشرق ، المغرب ،2011 ص153

[4]- أبو الأجفان محمد "كتاب رحلة القلصادي"، الشركة التونسية لتوزيع تونس، 1978 ص110

[5]- محمد سرير ،خطاب الرفض في شعر محمد بلخير "إنسانيات" العد46/10-12-2009ص104

واقصد ملازمة شيخا عارفا، يدان له بالولاء والطاعة و رجاءه حين الرجاء ، وغناه حين الافتقار، ورفقته حين الخلوة وناصره إن هو غلب أو ظلم، يقول محمد بلخير :

أنا خديم رجل البيضا زين القباب محبوب خاطري لبدا متونس به
يد الشيخ حرمتك ليك هدين النيا ومن قاصد شيخ لازم تبان عليه افضالوا[1]

كما تظهر مكانة الشيخ وحرمته من مدح أبو راس الناصري لمعسكري شيخه "المشرفي" قائلا :

فيا لو رايته بدرسه جالسا وحوله حلقات الأسود الهوا صر

كأنه قمر الأفق في غيهب الدجى من بين كواكب النجوم الزواهر [2]

يظهر أبى راس مكانة شيخه "لمشرفي" لكثرة علمه وتجربته وتواضعه، مكان القمر الذي كان يحتل مكانة مقدسة في المجتمعات القديمة عند أصحاب الهياكل وهم عبدة الكواكب الذين انشغلوا بعبادتها وتعظيمها واتخذوا لكل كوكب صنما من الجوهر المنسوب إليه و اتخذوا صنم الشمس من الذهب وزينوه بالياقوت والألماس وصنم القمر من الفضة[3]، بذلك يربط قداسة شيخه" المشرفي" بنور الشمس والقمر، فقداسة ومكانة الشيخ مرتبطة بنوعية العلم الذي يقدمه لطلبة لقول احمد باي بلعالم:

إذا أفادك إنسان بفائدة من العلوم فلزم شكره أبدا[4]

يقول علي ابن أبي طالب رضي لله عنه" أنا عبد من علمني حرفا إن شاء باع و إن شاء اشترى و إن شاء اعتق"[5]، يؤكد علي ابن أبي طالب رضي لله عنه على قيمة ومكانة شيخ العلم حيث يقول أيضا "زوال العلم أهون من موت العلماء "[6]، جاء عن مسعود الانصاري البدري رضى الله عنه قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم "من صلى علي صلاة لم يصل فيها علي وأهل بيتي لم تقبل منه" أخرجه الدرقطني و البيهقي، وقال الامام الشافعي في هذا المعني مشيرا الي وصفهم ومنبها على ما أخصهم الله تعالى به من رعاية فضلهم :

---

[1]- محمد أبو راس الناصري" فتح الإله" ترجمة محمد بن عبد الكريم المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر 1990 ص55

[2]- الشهرستاني "الملل والنحل "تحقيق أمير علي مهنا ،دار المعرفة بيروت،ج5،ط1996،5ص

[3]- محمد باي بلعالم "الرحلة العلية إلي منطقة التوات"،ج1،مطبعة دار هومة ،الجزائر 2005ص03

[4]- مصطفى الجندي الجفاني "تعلم المتعلم طريق التعلم "وزارة الأوقاف والقران الكريم ،مخطوط تحت رقم619ص18

[5]- مخطوط ،مجهول المؤلف "كتاب النفائس لأولاد المدارس" طبع في بيروت سنة 1878ص15

[6]- نقلا عن السمهرودي ، الاشراف على فضائل الاشراف ،ابراهيم الحسني الشافعي ،كتب المخطوطة ،دار الكتب المصرية ،مصر 963هـ

يأهل بيت رسول الله حبكموا فرض من الله في القران انزله

كفاكموا من عظيم القدر انكموا من لم يصل عليكم لا صلاة له[1]

على هذا الاساس يظهر أن شرف العلم من شرف العلماء حسب مصطفى الجندي العلم وسيلة إلي البر والتقوى الذي يستحق به الكرامة عند الله تعالى وفخر الشيخ العارف أولى من فخره بأصله لقول أبي الطيب المتنبي

على قدر أهل العزم تأتي العزائم ويأتي على قدر الكريم المكارم [2]

هذا ما ذهب اليه الباحث المغربي نور الدين الزاهي على أن ضرورة الارتباط القرابي بالرسول صلى الله عليه وسلم ، أمر ضروري وراء ظهور النزعة الشريفة ، أي أنها ضرورية لإيجاد هذا الاصل الخالص وليس فقط احترام المنحدرين من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم [3]، حسب تعبير ميشوبلليز لقد اثارت أذكار الجزولي وأتباعه لشعور المغاربة الديني ارتباطاته الواسعة بالنبي صلى الله عليه وسلم والمنحدرين عنه وما كتاب الجزولي دلائل الخيرات سوى سلسلة من الادعية للنبي و التكريمات لشخصيته ورسالته وأصبح كل من له ارتباط بالنبي من بعيد او قريب يحمل قيمة عالية وسامية بالمقارنة مع الناس الاخرين[4]، بمعنى أن مكانة الفقيه العلمية هي من مكانة شرفه، و الشريف حسب جاك بيرك هو الذي يستفيد من معاملة المثيرة للعطف دون أن يهمل علاقته بالسلف لذلك ينتظر منه دائما حسن الدعاء والتدخل ببركته [5]، هنا يحيلنا بيرك الى علاقة لها أهمية كبرى في حياة الطالب وهي علاقة بركة الفقيه بالنسب الشريف، هذا ما حدث مع السعديين الذين كانوا ينسبون أنفسهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ويقولون إن السبب في قدوم سلفهم من الحجاز إلى المغرب، أن أهل درعه كانت لا تصلح ثمارهم وتعتريها العاهات كثيرا فقيل لهم لو أتيتم بشريف إلي بلادكم، كما أتي أهل سجلماسة لصلحت ثماركم كما صلحت ثمارهم فأتى أهل درعه بالمولى زيدان بن أحمد مضاهاة لأهل سجلماسة فعادت عليهم البركة [6]، بسبب هذا الفعل أصبح

---

[1]- مصطفى الجندي ،المرجع السابق ص26

[2]- نورالدين الزاهي ، المرجع السابق ، ص15

[3]- نفسه ص 11

[4] -Jacques Berque 'ulémas fondateurs usurgés du Maghreb' Edition sundbad paris 1982p34

[5]- أبو العباس بن احمد بن خالد الناصري "الاستقصاء لأخبار المغرب الأقصى "تحقيق جعفر ومحمد الناصري ج3،دار الكتاب، المغرب 1955ص03

[6]- نورالدين الزاهي ، المرجع السابق ،ص30

الشرف مفتوحا للامتياز من جهة ومن جهة اخرى مجالا لتأسيس شرعية سلطة الخطاب والفعل[1]، حيث تجسدت هذه الامتيازات في الالقاب التي يحملها الشريف وأبناءه والتي تميزهم عن باقي الناس (سيدى، الشريف أو مولاي الشريف)ثم ان صحبة الشريف باعتبارها واجبا من الواجبات الدينية ، وبما انهم ورثة النبي صلى الله عليه وسلم كان لهذا الاخير، أن يبعث الى السلطان ويطلب منه ما شاء كما قام سيدي شيخ محمد بن العباس وطلب من السلطان أن يكتب لسيدي أحمد بيتا في المدرسة فكتب له البيت وفرشه وسمنه وزيته ولحمه وجميع ما يمونه وهذا كله من بركة العلم والحرص في طلبه لقوله صلى الله عليه وسلم تكفل الله برزق طالب العلم يأتيه من غير تعب ولا مشقة وغيره لا يناله الا بالتعب والعناء والمشقة وهذا كله من دعاء الشيوخ له ورضاهم عنه وخدمته لأشياخه[2] ، كما أنه كان يأخذ قسطا من الزكاة لحسابه الشخصي[3]، في حين أصبح مجالا مفتوحا للامتياز ليتم فتحه على عوالم فكرية مختلفة على التصوف والمهدوية والتراث الموحدي وكذا على معتقدات الناس (الكرامات والخوارق) بحيث أصبح يعتبر عاملا اساسيا في عملية تحريك الجهاد ضد الاستعمار ، حسب تعبير ميشوبلليز لقد كان الناس ينظرون الى من يتراسهم اذا كان شخصا منحدرا من سلالة النبي صلى الله عليه وسلم شريف باعتباره فألا ورمزا للنصر أثناء الدفاع عن الاسلام المهدد ،لقد حول الصلحاء الشرف من مجال مغلق الى مجال مفتوح للامتياز أي من مجال يتعالى على العامة الى مجال يرتوي ويترسخ بثقتها[4]، هذا ما ذهب اليه عبد الرحيم العطري في قوله على انه نفس الامر بالنسبة لمن يحملون السلاح ويختصون تاريخيا بالدفاع عن المجال والانسان، فالبركة تؤمن المجال وتحصنه ضد التأكل والاختلال والسلاح أيضا يقوم بالدور ذاته ومن يحمل البركة أو السلاح سيحمل الحظوة والتميز عن باقي مكونات التشكيلة الاجتماعية في المجتمع [5]، بمعنى أنه كان لأل المقدس أو الصلحاء من المرابطين والشرفاء التحكيم والوساطة في قضايا المجتمع ، حيث ساهموا بقسط وافر في صناعة القرار وتصريفه من خلال موقعهم التاريخي رغم تواجد العديد منهم في أسفل السلم الاجتماعي، نتيجة تحررهم من وضع الاتباع و ارتقائهم الى مستوى الفعل والتدبير الناتج عن حكمتهم وحسن تدبيرهم، كان لهم الحق في اكتساب الشرف.

---

[1]- ابن مريم المليتي المديوني، البستان في ذكر العلماء والاولياء بتلمسان ،تحقيق عبد القادر بوباية ، مكتبة الرشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر 2011 ص101

[2]- نورالدين الزاهي ، المرجع السابق ، ص17

[3]- نفسه ص 20

[4]- عبد الرحيم العطري، المرجع السابق، المغرب ص108

[5]- الفرد بل "الفرق الإسلامي في الشمال الإفريقي "ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الغرب الإسلامي بيروت 1981ص432

شرف وبركة الفقيه

حدث وأن صادفنا من خلال دراستنا لأطروحتنا مناقشة حول قضية النسب الشريف التي أثيرت بين طالبين مسافرين ، بإحدى مساجد عينة بحثنا ، وصفا زميله بالوضاعة "نسب وضيع" وعلى انه من أهل البيت حسب الفرد بل **Alfred Bel** ارتبط مفهوم البركة بأصل النسب الشريف الذي يتمتع به هؤلاء الشرفاء بوصفهم ورثة القوة الباطنية التي كانت لجدهم النبي صلى الله عليه وسلم "[1]، وله الحق في أن يحترمه ويسعى إلى خدمته كما يخدم شيخه، فليس التسليم وحده كافيا وإنما أصبح الشرف المحرك الأساسي في تحديد العلاقات والسلوك القائمة بينهم ،لذا أصرا كلاهما على انه من نسب شريف بحجة أن لله عز وجل اصطفاهما عن باقي عباده وأكرمهما بحفظ القران الكريم لقول علي بن أبي طالب رضي الله عنه "كفى بالعلم شرفا أن يدعيه من لا يحتسبه ويفرح به إذا نسب إليه وكفى بالجهل ذما أن يتبرأ منه من هو فيه"[2]، فأهل المحبة الإلهية اشرف من نسبة الأبوة الظاهرية وهي التي جعلت بلال الحبشي وسلمان الفارسي وصهيب الرومي رضي الله عنهم من أهل البيت وأُبْعِدَ عنها أبو طالب ولم ينفعه نسبة العمومة التي هي اقرب الأنساب الإلهية لما حاججته المشيئة الإلهية والى هذه النسبة أشار الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض بقوله :

نسب أقرب في شرع الهوى بيننا من نسب أبوي[3]

شرف العلم والصحبة ارتبط بشرف النسب، لهذا الطلبة مدركين جيدا أن بركة ورضي الشيخ مرتبطة بالعلم والصحبة ومن تأذى منه شيخه حرم بركة العلم والصحبة كون بركته متوارثة حسب جرمان تيون**German Tillion**" تنتقل البركة من الكبير إلى الصغير ومن الأب إلى الابن عن طريق الوراثة"[4]، ويمكن للشيخ منحها إلى من أراد وليس كل شيخ يمكنه تقديم ذلك الا من اصطلح عليه الطلبة بما يسمى الكبريت الاحمر أي من جمع الله له بين العلم والعمل وأنار وقته وسعد به المكان والمحل الشريف الذي سره وعلمه كالماء الذي يجري[5] ، باعتبارها قوة باطنية وروحية مستمدة من قوة نورانية خارقة متمثلة في القوة الباطنية الخاصة بالنبي صلى الله عليه وسلم ، والتي خص بها سلالته بعده وهم أهل البيت

[1]- محمد عمر بازمول "التأصيل في طلب العلم" مكتبة المصطفىPDFص13.

[2]- محمد بن عبد الله بن مصطفى الخالدي النقشبندي، البهجة السنية في آداب الطريقة العلية الخالدية النقشبندية، دار الكتب العلمية،ط1بيروت2008ص40.

[3] - Germaine Tillion-IL' était une fois l'ethnographie-édition de la seule paris 2000p166.

[4]- محمد بن يوسف الزياني، دليل الحيران وانيس السهران في اخبار مدينة وهران، تقديم المهدي البوعبدلي، طبع بالمؤسسة الوطنية للفنون المطبعية ،الجزائر ،2007 ص47

[5]- لوران فلوري "ماكس فيبر" ترجمة علي مقلد ،دار الكتاب الجديد ،بيروت 2008ص73.

الشرفاء وأتباعه، والتي يعبر عنها ماكس فيبر على أنها هبة ربانية وهي فكرة البشر العاديين الذين ينتقلون من أشخاص عادين إلي اللاعاديين[1]، والتي خص بها كذلك الله عز وجل نبيه يعقوب عليه السلام ، إذ تجلت بركته من خلال قصته مع أبناء ابنه يوسف عليه السلام أين وضع يده اليمنى على رأس " أفرايم "و اليسرى على رأس" منسي" ولما رآه يوسف شق عليه ذلك وقال" لا يحسن هذا يا أبت لأن هذا بكر ولدي فاجعل يمينك على رأسه، فكره ذلك يعقوب وقال علمت يا بني علمت وستكثر ذرية هذا وتعظم ولكن أخاه الأصغر يكون أكثر نسلا وعددا[2](44)، ما أخاف النبي يوسف عليه السلام هو وضع والده يده اليسرى على رأس ابنه، لأنه كان على علم ويقين من بركة والده التي خص بها الله عز وجل أنبياءه والصالحين من عباده، كونها لا تخضع لنسب الشريف فقط وإنما تخضع كذلك للإيمان القوي بالله والسبيل الوحيد للوصول إلى هذه المرتبة يتنافس الطلبة على العلم والترحال بحثا عن شيوخ العلم حسب ايفون توران **Evon Touran**" أما بالنسبة للعالم المسلم فالتعليم ليس له إلا غاية واحدة ألا وهي معرفة الدين وعلومه التطبيقية[3]، الذي بفضله يمكن الارتقاء إلى المراتب العليا واكتساب النسب الشريف الذي أساسه العلم المستمد من رضي الشيخ "شرف العلم"[4]، لهذا كانت ضرورة وجود الفقيه (الشيخ) لتوحيد الطلبة، واليه تعود عملية تسيير وضبط سلوكاتهم، لذلك يقال من لا شيخ له فالشيطان شيخه، تكمن اهمية الجلوس الى المشايخ في التأدب معه ومن تأدب مع شيخه تأدب مع ربه وحرمة الشيخ على الطالب كحرمة النبي مع اصحابه، اختيار الشيخ واقتناءه لطالب المؤهل للمشيخة اللاحقة تتطلب معرفة ذوقية واحساسات تمكنه من اتقان عملية الاختيار التي ليست سوى عمل تنبئي بمال الطالب المستقبلي وطاقاته الدفينة، في هذا الصدد يرى نورالدين الزاهي ان عنصر البركة الذي يؤهل الشيخ لممارسة التقية يحتل موقعا اساسيا في علاقة الشيخ بالمريد الى جانب المستوى المعرفي والاخلاقي والسلوكي للشيخ بوصفه ضمانة مادية ودينية على قدرته لممارسة شفاعة للمريد او صد العدوان الطبيعي او الانساني او ضمان الدخول الى الجنة ،وتعتبر البركة سرا من اسرار الشيخ وهي اساس اعتقاد المريدين في خوارقه وكراماته كما انها عامل اساسي لاعتقاد الجمهور والسلطان السياسي في حظوته[5]، ومن تحقق له شرف العلم تحقق له شرف النسب إلى العلماء، ان اعز واشرف المعاني هو العلم وقال تعالى في فضله في قصة موسى

---

[1]- أبي محمد علي بن احمد المعروف بابن حزم الظاهر "الفصل في الملل و الأهواء والنحل تحقيق محمد إبراهيم نصر وعبد الرحمن عميرة ،دار الجيل بيروت 1996ص243

[2]- ايفون توران "المواجهات الثقافية في الجزائر المستعمرة "ترجمة عبد الحميد اوزغلة دار القصبة لنشر الجزائر 2007ص130

[3] شرف العلم :هو شرف النسب بفضل العلم يكتسب الطالب نسبه الشريف حتى وان كان من نسب أبوي وضيع "الوضاعة من الجهل".

[4]- نورالدين الزاهي ، المرجع السابق ، ص123

[5]- عمار طالبي، محمد بن تومرت مهدي الموحدين، الطباعة الشعبية للجيش الجزائر 2007 ص180

والخضر **(وَإِذْ قَالَ مُوسى لِفَتيهُ لَا أَبْرَحُ حَتَّى أَبْلُغَ مَجْمَعَ الْبَحْرَيْنِ أَوَ أَمْضِيَ حُقُبًا)** الكهف(الآية60)، مع ما انطوت عليه القصة من قطع البلاد في طلبه وركوب المشاق ولقاء النصب في سفره الى علم يتعلمه بعد ان قال انه علم اهل الارض فلما بلغ مجمع البحرين ووجد الخضر قال له مستضعفا **(قَالَ لَهُ مُوسى هَلَ اَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِمَنِ مِمَّا عُلِمْتَ رُشْدًا)** الكهف (الآية 66)، فلا معنى أعز وأشرف من العلم ولا يختاره الله الا لأحب الخلق اليه وأكرمهم عليه[1].

شرف الطالب من شرف الفقيه

الطالب ملزم بإتباع آداب معينة تجاه شيخيه الذي ينير له الطريق الى المعرفة الدينية، بصحته يكون قادرا على أخذ العلم والمعرفة والوصول إلى هدفه.

لقول ابن عشير:

من يصحب شيخا عارف المسالك يقيه في طريقه المهالك [2]

اما السبيل الوصول إلى ذلك كان على الطالب أن يحترم شيخيه ويثق به ولا يخالف له أمرا، ولا يتم ذلك الا بشروط:

أ- أن يكون اعتقاده بشيخه قويًا، بحيث لا يحصل له مقصودًا أو مطلوبًا إلا على يد هذا الشيخ، وإذا تشتت نيته وذهبت إلى شيخ أخر حرم من بركته ورضاه في بلوغ ذلك المبتغى.

ب- أن يقتدي سلوكات شيخه وعليه أن يمثله أمام العامة أحسن تمثيل.

ت- أن يكون منقادًا لأوامر شيخه ويخدمه بالمال والبدن والإخلاص له والصدق.

ث- أن يكون صادقا مع شيخه لا يخفي عليه أي سر مهما كان نوعه يجب أن يكون على ثقة تامة بقدرة شيخه ومساعدته في الحالة التي يحتاج فيها إليه.

جـ- عدم رفع صوته في حضرة الشيخ أو الكلام حين كلامه، عليه دائما أن يستمع إليه وينتظر تلقي الأوامر منه.

حـ- عند سؤال الشيخ أحد عن أية مسألة ينبغي على الجميع التزام الصمت، اما المبادرة في الجواب ممنوعة من غير طلب في حضرته.

خـ- هو ملزم بإتباع القانون الداخلي للمؤسسة، وعليه ألا يتصرف بتهور مع الشيخ، ويجب احترامه مع الذهاب إليه في أوقات معينة ومجالس معنية كذلك.

د- كتمان أسرار الشيخ سوآءا أمام العامة أو الطلبة.

---

[1]- عبد الواحد ابن عاشير" متن ابن عاشير"، دار الهدي، الجزائر 2000، ص 24.

[2]- محمد الصالح حوتية ، توات والازواد، ج1 ،دار الكتاب العربي للطباعة والنشر والتوزيع والترجمة ،الجزائر 2007، ص188

ذ- لا يتكلم إلا بما تكلم به الشيخ دون زيادة أو نقصان" كما انه ليس مجبرًا في التكلم بلسان الشيخ".

ر- لا يتحمل أمانة تبليغ سلام الغير إلى الشيخ، لأنه من سوء الأدب.

ز- أن يسعى جاهدًا إلى تطبيق أوامر شيخه دون كلل أو ملل، كما يستوجب عليه إظهار الاحترام والتقدير.

س- ألا يقوم بسلوك طائش كرمي الأوساخ أو الضحك بدون سبب في حضرة الشيخ.

يقول محمد الصالح حوتية "على المريد ان يتبع هذه الصفات حتي ينال غاياته ويكسب رضا شيخه وهذا بصفاء القلب وطاعة الشيخ فيقول:

المريد ألي أصفَ يُوصل والشيخ ألي كان كامل يعطش به

سر الله ما ينجم غير العاقل والجهل لو كان في حجر يرميه [1]

والأخذ بهذه الشروط تجعل من الطالب أكثر قربا من الشيخ، لذا نجد أن جميع الطلبة يسعون جاهدين للخدمته، حيث يتجلى ذلك في حسن الأدب والمعاملة الحسنة والتنافس على إرضائه، والفوز بالسر الرباني عن طريق صفاء القلب.

يقول سيدي مولاي عبد الله بن سليمان طلب مني سيدي وشيخي محمد بن الحاج التيلوليني أن أدرس في حضرته الطلبة ،فلما انتهيت من الدرس فرح بي ونشأ ابياتا يمدحني فيها:

يا طالب العلم شمس العلم طالعة لولا عليها سحابة من القدر

فارصد سحوب غرماملال[2] إن وردت لعبد الله ضيوفا ساحة القدر[3]

اذن يسعى دوما الطالب بالفوز الي مجالسة والتقرب الي شيخه، خصوصًا في المناسبات مثل الجلوس الى جانبه وتقاسمه معه ذلك الطبق "مؤاكلته" في الجنائز، أين يحضر الى جانبهم .في تلك اللحظة نجدهم يتنافسون على من يحظى بالجلوس إليه والى جانبه، حسب تعبير عبد الله حمودي "لأنه محرم عليهم ولا يحصل هذا إلا في بعض المناسبات الطقوسية التي ترفع نسبيا التحريم"[4] ، كون هذه المناسبة الطقسية يحضرها أكابر الطلبة، أين يلتفون حول الشيخ، ومعهم الطلبة المسافرين.

---

[1]- أغرماملال كلمة بربرية وهي قرية تابعة لبلدية زاوية كنته وتبعد عن ادرار 86 كلم طريق ادرار الى رقان

[2]- محمد سالم بن الحاج عبد القادر، ابسط العبارات واطيب النفحات بذكر بعض علماء وصالحي منطقة توات ،شمس الزيان للنشر والتوزيع، الجزائر 2011.

[3]- عبد الله حمودي "الشيخ والمريد ترجمة عبد الحميد حجفة دار توبقال، ط3، المغرب 2003، ص 98.

[4]- نورالدين الزاهي ، المرجع السابق، ص127.

بوجود الشيخ تصبح الزعامة والسلطة له، هو من يقوم بتحديد السور القرآنية الوجوب تلاوتها في تلك الليلة، والدعاء وقراءة الفاتحة و الذهاب أو البقاء، كما انه هو الذي يكرم من طرف صاحب الجنازة أو الوليمة بالتقديم له مبلغا من المال مقابل تلاوتهم للقرآن والدعاء للميت وأهله بالخير والفوز بالجنة"، بذلك هو حسب نورالدين الزاهي" يعتبر بذلك شخصية فوق الاطراف المنتمية لوسطه ورمزا كاريزماتي لجمهوره" ، كل هذا ناتج عن الطاعة العمياء والخضوع والخدمة التي تصل حد العبودية التي يرضاها الطالب طواعية لأنه يعتبرها جزاء من الورع والتقوى والطريق للوصول الى الصلاح.

نستخلص اذن من هذا كله انه ليس كل شريف هو شريف النسب، وانما اهل المغرب هم من البربر واصبحوا بفضل الاسلام وحملهم لكتاب الله واهتمامهم بالعلوم الشرعية الاسلامية وتفقههم في الدين، حملهم ذلك كله الى بلوغ مصف الشرفاء، بفضل العلم لقوله تعالى " **إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عَبَادِهِ الْعُلَمَاءُ**" فاطر(الآية28)، وجعلهم في المراتب العليا في المجتمع وأكسبهم مكانة في قلوب الناس، بسبب اخلاصهم ومودتهم وحبهم وطاعتهم لله وتواضعهم للناس، هذا ما كان ولايزال الى يومنا هذا ممثلا في الفقيه المغربي الاصيل والمريد الحر النقي الشريف الذي لا يزيد ولا ينقص عن أصالة وشرف الفقيه، رغم عدم ارتباط جل فقهاء المغرب وافريقيا بالنسب القرابي الدموي المرتبط بالنبي صلى الله عليه وسلم وأل بيته، الا انهم اثبتوا جدارتهم واحقيتهم في الانتساب الى زمرة العلماء التي بدورها تخول لهم الارتباط الوثيق بالنبي صلى الله عليه وسلم، لأن المحبة الإلهية أشرف من نسبة الأبوة الظاهرية، فهؤلاء الفقهاء احبوا لله ورسوله حبا لا يضاهيه حب، دون الطمع في أي شيء سوى مرضاة الله وشفاعة رسوله الكريم، هذا ما يصبوا اليه الطُلْبة والمسافرين "المريد" من خلال مجالسته للفقهاء ومشايخ العلم، الذين يتمتعون بفضل ميراثهم الروحي بشرف النسب الكامل للرسول متجاوزين بذلك حصر الانتماء في النسب القرابي، قصد بلوغه مصف الشرفاء (ميراث روحي)

الهوامش

****الفقيه:** كلمة يتداولها المغاربة تعبيرا عن ذلك الطالب "معلم العلم" في المدارس العلمية العتيقة والمثقف، الذي بلغ درجة من العلم القادر على تفسير القرآن الكريم ومتمكن من العلوم الشرعية أي من أتقن العلم وعلمه فهو فقيه وحاصل على الاجازة من مشايخه الذين درس على يدهم، كما احتفظ بلقب العالم عندما استقل الفقه بموضوعه.

#_ شرف العلم :هو شرف النسب بفضل العلم يكتسب الطالب نسبه الشريف حتى وان كان من نسب أبوي وضيع "الوضاعة من الجهل"